بسم الله الرحمن الرحيم

٦٧ – سورة الملك

قال المهايمى : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغى أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنية لخدامه وعدم التفاوت فى رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة (تبارك) . وهى مكية . وآيها ثلاثون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » قال ابن جرير[1] : أى تعاظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانىّ : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلوّ والبركة . وباعتبار تسخيره عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله[2] (فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) كلاًّ بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فمعنى (تبارك) تعالى وتعاظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ماوجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدها على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ)

«ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى : قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٣٦ / يس / ٨٣] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيي من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدّره .

قال القاشانيّ : الموت والحياة من باب العدم والملكة. فإن الحياة هى الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له. وعدم الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود. والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجودىّ، فلذلك صح تعلق الخلق به، كتعلقه بالحياة، وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان فى حسن العمل وقبحه، أى العلم التابع للمعلوم الذى يترتب عليه الجزاء، وهو العلم الذى يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس إلا علم الله الكامن فى الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم، لأن الحياة هى التى يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعى إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها، وبهما تتفاضل النفوس فى الدرجات، وتتفاوت فى الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت فى عالم الملك ذاتىّ ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصى .

« وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى يقهر من أساء العمل « ٱلْغَفُورُ » أى لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ)

« ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير[٣] : طبقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقال المهايمىّ : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليتم أمر الحكمة فى الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ (السماء) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان، فإنه من السموّ ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى[1](فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ) أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهائىّ سماء . ومنه قوله تعالى[2] : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى[3](أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) والكواكب سماوات. فالسموات السبع المذكورة كثيراً فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب فى رعاية الحكمة ، بل راعاها فى كل خلقه .

« فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى إن شككت، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ » أى: خلل . وأصل (الفطور) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هى متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم فى سورة (ق) فى آية[4]: (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) .

---

(١) [٢٢ / الحج / ١٥] .
(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٤] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٢] .
(٤) [٥٠ / ق / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

« ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى كره « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنقَلِبْ » أى:يرجع « إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معيى كالٌّ .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب الزمخشرىّ إلى أن قوله تعالى (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) صفة ثانية لقوله : (سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ) وضع فيها ـ خَلْق الرحْمَن ـ موضع الضمير للتعظيم ، والأصل (فِيهِنَّ) وتابعه القاضى والقاشانىّ ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك فى خلق السموات ، لاترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها. وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادىء سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لايفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) مستأنفاً ، مقرراً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله ـ لكان أولى من تخصيصه بوصفية ماقبله ، ويكون كآية[1] : (أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ)وآية[2]: (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) وتلطف بعضهم فقال : فى الآية إشارة إلى قياس تقديره : ماترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى فى خلقه من تفاوت .

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثانى ـ للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب (الفِصَل) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نفاه الله تعالى عن خلقه ، فإذن ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نفاه الله تعالى عما خلق هو شىء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله عز وجل (مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئىّ فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلًا ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً فى تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها المميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهيأة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شىء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شىء منه أصلًا . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضا نعلم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لاتفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول فى الظلم والإنصاف ، وفى العدل والجور ، وفى الصدق والكذب ، وفى الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما فى العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التى ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهى الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لامنفك لهم عنها ، وهى أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً فى خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهى أن يرى فى خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الناصر : فى قوله تعالى (يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذى يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرِكٍ الفطورَ ، هو الآلة التى يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ، دل على أنه لاشيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » قال ابن جرير [1] : وهى النجوم . وجعلها (مَصَابِيحَ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذى يضيء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير فى قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(وَجَعَلْنَاهَا) على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ـ والله أعلم ـ .

وقال القاضى : أى وجعلنا لها فائدة أخرى هى رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس ـ وهم المنجمون ـ .

قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات[1] (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ » أى فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[٧] (إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ)

[٨] (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ، كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

[٩] (قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ)

[١٠] (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيَ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

[١١] (فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

(١) [٣٧ / الصافات / ٦ ـ ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسىّ ، أو لأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله [1] (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها ، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِيَ تَفُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ » أى تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله . شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ ـ كما فى شرح المفتاح الشريفى ـ وأما ثبوت الغيظ الحقيقىّ لها ، بخلق الله فيها إدراكا ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (تكاد) تأباه ، كما فى قوله [2] : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) وقد صرح به علماء المعانى فى بحث المبالغة والغلوّ . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازىّ ، أو على تقدير مضاف ـ كما فى (العناية) ـ .

« كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

---

(١) [١١ / هود / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

« قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا فى التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا فى نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النُّذُر ما جاءت به ، سماعَ طالب الحق ، وعقلَ مَن نبذ الهوى « مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : فى عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول ـ قال الناصر : لو تفطن نبيهٌ لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثانى ـ قال ابن السمعانىّ فى (القواطع) : استدل به من قال بتحكيم العقل .

وقال الزمخشرىّ : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : فأقروا بجحدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه، وهم لم يروه « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بضمائرها، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَن خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » أى اللطيف بعباده ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة فـ(من) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالىّ : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك فى إيصال مايصلحها سبيل الرفق، دون العنف. و (الخبير) هو الذى لايعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك فى الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ، وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ)

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير[1] : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ) الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير: فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ،فى أنواع المكاسب والتجارات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ)

[١٧] (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أأمنتم العلىّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِىَ تَمُورُ » أى : تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً » وهو التراب ، فيه الحصباء الصغار، « فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ » قال ابن جرير[1] : أى عاقبة نذيرى لكم، إذا كذّبتم به، ورددتموه على رسولى .

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد بيَّن تعالى نذيره لهم فى غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرُّوا، ونصر رسوله، وغلبة جنده ، كما قال تعالى[1] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقرّاء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وَصْلًا ، وأثبتها وَقْفاً ، ومنهم من حذفها فى الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال فى (نكير) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عَدَدًا وعُدَدًا «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإنزال العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسلية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

« أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ » أى باسطات أجنحتهن فى الجوّ عند طيرانها ، « وَيَقْبِضْنَ » أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل فى بعض الأحيان للتقوّى بالتحريك . كما يفعله السابح فى الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت فى حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

« مَا يُمْسِكُهُنَّ » أى فى الجو « إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ » أى المفيض لكلّ ما قُدّر له ، حسب استعداده بسعة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

« إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » قال القاشانىّ : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوِّيه بحسب

(١) [٣٨ / ص / ٨٨] .

مشيئته ، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .

ثم بكّت تعالى المشركين ، بنفى أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ)

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ » أى معشر المشركين « يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ » أى إن أراد بكم سوءًا ، فيدفع عنكم بأسه. « إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ » أى من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ . أو أنها تقرّبهم إلى الله زلفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ، بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ » يعنى المطر ونحوها « بَل لَّجُّوا۟ » أى تمادَوْا « فِى عُتُوٍّ » أى عناد وطغيان « وَنُفُورٍ » أى شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصَرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرْزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعنادًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و (المكب) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سويًّا هو القائم السالم من العثار ، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى الكبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لايستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[٢٣] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

[٢٤] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٢٥] (وَيَقُولُونَ متَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٢٦] (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبدوه ، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً ، أو ذا زلفة ، أى قُرْب « سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيتا « هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستعجلون به ، من الدعاء ، أو تدّعون أن لا بعث ، من (الدعوى).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كان كفار مكة يتربصون بالنبى ﷺ ريب المنون ، تخلصاً من دعوته وانتشارها ، فأمر أن يقول لهم ذلك . أى أخبرونى إن أماتنى الله ومن معى من المؤمنين ، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ماتتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنىّ بالعذاب : إما الدنيوىّ ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخروىّ ، وهو أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا ، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا » أى غائراً لاتناله الدلاء ، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازىّ : المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى ، ليريهم قبح ماهم عليه من الكفر . أى : أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ فلابد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلًا ، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى[1] : (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ . ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨] .